الفصل الثالث

التصوف في الغرب الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين

نظرة ألفريد بيل

Le Soufisme en Occident Musulman
au XIIème et au XIIIème
en annales de l'Institut d'études orientales
d'Agler 1934

ALFRED BEL

ترجمة :
الدكتور محمد العدلوني الادريسي

التصوف في الغرب الإسلامي خلال القرنيين الثاني والثالث الميلاديين

ألفريد بيل Alfred Bel

في إطار الإسلام المشرقي الرسمي [السني أو الشيعي] عرفت النظريات والمذاهب الصوفية خلال القرن الحادي عشر الميلادي إقبال العديد من المريدين من بقاع أرض الإسلام الشاسعة. ولعلها لم تجد في أي مكان آخر، تربة أكثر خصوبة لنموها، أفضل مما وجدته في الغرب الإسلامي(1). لا سيما في بلاد البربر، حيث ستحتل مكانة بين مقررات التعليم الديني، منذ القرن 12م، كما كان الشأن بالنسبة للمشرق. وعلى الرغم من الحصار المضروب على مؤلفات الغزالي في الغرب، فإن التصوف عرف كيف يثبت جذوره في تلك المناطق على عهد الدولة المرابطية. والحقيقة أن ممثليه الكبار لن تكون لهم أي سلطة إلا على عهد الموحدين، بالرغم من معارضة الحكم المركزي الذي لم يكن ليقبل أن تشمل الكرامات الإلهية(2) أشخاص آخرين من غير المهدي بن تومرت.

(1) كان التصوف المشرقي معروفا في الغرب الإسلامي قبل الغزالي. ويعتبر ابن مسرة أول من أدخله إلى [إسبانيا] الإسلامية خلال القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي أنظر أسين بلاثيوس، كتاب ابن مسرة ومدرسته، مدريد 1914م. وابن مسرة هذا هو محمد بن عبد الله ابن نجيح من أهل قرطبة، 269هـ - 319هـ من أهم مؤلفاته : رسالتا : خواص الحروف وحقائقها وأصولها [الحروف]، الإعتبار [التبصرة] وقد نشرهما محمد كمال جعفر بمجلة كلية التربية طرابلس 1914م. وحول حياة ابن مسرة وفلسفته الصوفية، أنظر : محمد العدلوني الإدريسي : ابن مسرة ومدرسته، ط 1 دار الثقافة 2000م.

(2) وحسب كتاب "عبد الحق البادسي" المقصد الشريف المنزع اللطيف للتعريف بصلحاء الريف الذي ترجم من طرف الباحث الفرنسي س.ج. كولان باريس 1926م ص 26، فإن أحد أبناء عبد المومن [ولعله أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن] ربما يكون قد =

وبالطبع، فإن النجاح الباهر الذي حققه التصوف بالمغرب آنذاك يعود لعدة أسباب ؛ فهذا م ج س كولان يرى أن مرد النجاح ذاك يعود إلى الافتقار القوي للأفكار الدينية التي دعمها المرابطون، ثم الموحدون، من بعدهم، وأيضا إلى الحاجة الصوفية الملحة في وضع مبادئ الأخلاقيات والتصوف الإسلامي كما وضعها الزهاد والثيوصوفيون المشارقة، رهن إشارة العامة، وذلك في شكل بسيط وجذاب[3].

ويبدو أيضا أنه من الضروري الأخذ بعين الاعتبار، بادئ ذي بدء، مظاهر الترف وحياة اللهو والبذخ التي انغمس فيها الفقهاء المرابطيون، وأثر كل ذلك على مشاعر الشعب الدينية. ثم إن إغفال الناس لقواعد السلوك والإفراط في شرب الخمر والانحلال الأخلاقي، كلها أعمال أثارت حفيظة حماة الإسلام التقليدي. وبالطبع قامت شخصيات ورعة وعالمة في هذا المكان أو ذاك لتلعب دور الرقيب على تلك الأخلاق المذمومة، كما هو الشأن بالنسبة لقاضي اشبيلية الذائع الصيت، أبو بكر بن العربي[4] المتوفى سنة 543هـ / 1148م بالقرب من فاس حيث دفن بمقبرة "باب المحروق".

وندرك من جهة أخرى، فيما يتعلق بالمعتقد الديني، مساهمة العقلانية الموحدية في تطوير التصوف ببلاد البربر، حيث وجد الأرض الخصبة لنشأته وتطوره، كما حدث هذا بالمشرق الإسلامي.

= استدعى المتصوف الريفي المشهور "أبو داود مزاحم" من أجل مداواته من مرض عضال [وكما ورد في الكتاب لعله داء البرص]، وأن هذا الأخير ربما يكون قد أفلح في علاجه بعد أن وضع ريقه على موضع الداء. حول الترجمة الكاملة لأبي داود مزاحم، أنظر : كتاب المقص الشريف... تحقيق سعيد أحمد أعراب، 1402هـ المطبعة الملكية الرباط.

(3) نفس المرجع ص 7.

(4) حيث أنه التقى في شبابه بالغزالي [ت 505هـ] أثناء إحدى أسفاره الطويلة قصد الدراسة رفقة والده فقد عرف عنه أنه قام بإدخال طريقة الغزالي الصوفية. بل ويعتقد أنه تلقى الخرقة الصوفية عنه، كما أنه بدوره ألقاها على "أبي يعزى" [توفي 572هـ - 1177م]، و"علي بن حرزهم" [توفي 559هـ - 1165م]، أنظر إشارة "بيل" عن سيدي أبو مدين وشيخه الدقاق بفاس.

أكثر من ذلك، فقد كان من الممكن أن نفاجأ لو أن التصوف لم ينجح في أن يدخل إلى أرض الإسلام الغربي ويترسخ فيها. فكل الحركات الدينية التي أحدثت ضجة في المشرق الإسلامي منذ الأصول الأولى لهذا الدين، وجدت صدى لها في بلاد البربر. وهذا ما لمسناه جيدا لدى الفرق كالخوارج والشيعة، خلال القرون الأولى، ثم بالنسبة للحركة السنية التقليدية وإقامة المذهب المالكي، ثم أخيرا لدى عقلانية الموحدين المعتزلية ـ الأشعرية.

ولم تكن الممارسة الفعلية للتصوف المصاحب للطقوس التعبدية المحببة دوما لقلوب البرابرة، والتي كانت تسمح إضافة إلى ذلك بمشاهدة الله، وتمكن المؤمن من الاستمتاع بصحبته والحصول على بركته وكراماته، لم يكن ذلك إلا ليقع موقع الرضا والاستحسان في قلوب المسلمين في تلك البلاد.

في بلاد البربر ـ ومنذ عهود خلت ـ كانت الديانة الأساسية تبدو مزيجا من الإيمان بقوى الخير وبقوى الشر بصورة خاصة، وبطرق طرد الأرواح الشريرة غير محددة، مثل هذا الوضع كان يحتم على التصوف أن يحقق النجاح. ألم يحمل التصوف معه إضافة إلى الفكرة القائلة أن الله هو الحامي للإسلام ـ وأكثر قوة من الأرواح الشيطانية ـ فكرة أخرى تتجلى في قدرته على مد بعض الأشخاص، أي أحبائه بجزء من قدرته وبركته ؟

أن يبلغ المرء مرتبة هؤلاء الأشخاص، الحاملين للبركة، [أصحاب الكرامات] من خلال ممارسة رياضات التصوف للحصول منهم على جزء من التأثير النافع الذي يدفع قوى الشر ويبيدها، كل ذلك كان منظورا ذا علاقة كلية مع طموحات جميع الناس، وحتى قبل أن يستحسن الإسلام السني في بلاد البربر عبادة الأولياء، كان هناك أشخاص بل وحتى بعض الأشياء يُقَدَّسُون، كمنابع لتأثيرات إيجابية ومهدمة للشر. وما امتزاج التصوف بالإسلام الرسمي منذ القرن 12م إلا ترسيخا في معتقد البربري المسلم لتلك الفكرة القديمة عن الولي، الذي أصبح وارثا لألوهية وثنية.

يعتبر "ابن العريف" أحمد الصنهاجي[5] المزداد بطنجة أحد الموالين الأوائل لتصوف الغزالي بالغرب الإسلامي فقد قضى هذا المتصوف الذائع الصيت، الجزء الأكبر من حياته بألميرية التي كانت آنذاك مركزا هاما من مراكز الدراسات التصوفية. ففي ألميرية قامت أولى أصوات التنديد والاستنكار الجماعي ضد تحريم وإحراق مؤلفات الغزالي التي منع فقهاء قرطبة التقليديين تداولها..." [م. أسين].

ففي كتابه [محاسن المجالس] عرض "ابن العريف" للمذهب الصوفي وقام بترتيب الحالات التصوفية حسب تعاليم الإمام المشرقي الأكبر. وربما يكون "ابن العريف" قد مات مسموما في مراكش سنة 536هـ/1141م. بأمر من السلطان المرابطي آنذاك "علي بن يوسف"[6]. إنها الفترة ذاتها التي عاش إبانها بفاس، بعض شيوخ التصوف على طريقة أبي مدين، وبخاصة عن محمد الدقاق السجلماسي. لقد ساهم "ابن العريف" في تكوين العديد من المريدين ومن بينهم زعيم ثورتهم "ابن قسي". وقد ترك لنا هذا المتصوف البرتغالي المقتول سنة 1151م، مؤلفا قام بشرحه والتعليق عليه محيي الدين بن العربي[7]، التلميذ الآخر لابن العريف وابن برّجان[8].

ومع "محيي الدين بن عربي" : المزداد سنة 561هـ / 1165م بمرسية [Murcie] نجد أنفسنا خلال القرن 12م الموحدي [قرن ابن رشد وابن ميمون وآخرون من نوابغ الفكر بإسبانيا]، في أبهى فترات ازدهار الحركة

---

(5) قد نفاجأ إذا ما علمنا أن علماء الأنساب المسلمين يعتبرون أحيانا قبيلة صنهاجة البربرية جزءا من قبيلة حمير العربية، كما يشير "ابن خلدون" إلى ذلك في كتابه "تاريخ البربر". وفي مقدمة طبعته وترجمته لكتاب "محاسن المجالس"، لم تفت "أسين بلاثيوس" الإشارة إلى ترجمة سيرة "ابن العريف".
وابن العريف هو أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي من أهل الميرية ويكنى أبا العباس [481هـ - 1088م/535هـ - 1141م] من أهم مؤلفاته : "محاسن المجالس" و"مفتاح السعادة".

(6) M A Palacios Texte Arabe, Traduction et commentaire de Ibn al arif Mahsine al madjalis pp. 6-7, Paris 1914.

(7) I goldziher Ibn barragan z d m g T LXVIII

(8) Recueil de Massignon concernant l'histoire de la mystique

الصوفية. أما ممثل هذه الحركة على الضفة الإفريقية وبالضبط ببجاية، فكان "أبو مدين"، مركز إشعاع التصوف وقطبه[9].

ها نحن قد اطلعنا على تصوف الغرب الإسلامي لتلك الفترة وعلى أبرز ممثليه من خلال العديد من تراجم وحياة الأولياء التي ألفها أولئك الذين عاصروهم أو كانوا قريبين منهم. وللمزيد من الإطلاع يمكن الرجوع إلى أهم المباحث في هذا الباب، ونخص بالذكر : مبحث محيي الدين بن العربي الذي كان قد كتبه على شكل رسائل[10] سنة 600هـ/1203م إلى صديقه بتونس، المتصوف "أبو محمد عبد العزيز"، ثم مبحث "يوسف التادلي" كتبه سنة 617هـ/1220م[11] ومبحث "عبد الحق البادسي" كتبه سنة 711هـ/13121311م[12]. قد عكس هؤلاء المؤلفون الذين ساهموا شخصيا في

(9) الشيخ الأكبر في الهرم الصوفي، هو القطب أو مركز الإشعاع، المحور الذي يدور عليه العالم الصوفي، وهو كذلك الغوث لإلتجاء الملهوف إليه، وبهذه الخاصية عرف "أبو مدين". أبو مدين هذا هو شعيب بن حسين الأنصاري [توفي 594هـ] أنظر ترجمته الكاملة بكتاب "التشوف" للتادلي وكتاب "البستان" لابن مريم، الجزائر 1801م وبالقسم الأول من هذه النظرات.

(10) الراسلة القدسية، هي تلخيص لكتاب ابن عربي المفقود، الذرة الفاخرة وهي ذات أهمية كبرى لمعرفة التصوف المشرقي والمغربي على هذه الفترة، وقد قام بالثيوس بترجمة مختصرة لها إلى الإسبانية، من خلال مخطوطين، خاصة الأجزاء المتعلقة بالحياة الصوفية، كما عاينها مؤلفها بالمشرق، بمكة ومصر، وكما حياها من خلال تجربته الخاصة.

(11) كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" الذي لم يكن منشورا عند صدور هذا البحث، والكتاب لأبي يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمان التادلي المعروف بابن الزيات، والذي نشر نشرتين، الأولى سنة 1958م ضمن مطبوعات معهد الأبحاث العليا المغربية [ج 12] وقد اعتنى بنشرها وتصحيحها "أدولف فور". أما الثانية فكانت من تحقيق الباحث المغربي "أحمد التوفيق" سنة 1984م ضمن منشورات كلية الآداب الرباط.

(12) الكتاب "المقصد الشريف والمنز اللطيف في ذكر صلحاء الريف" ينقسم إلى أربعة أقسام، القسم الثالث منها خصص للتعريف بصوفية المغرب الشمالي في القرنين 12م و13م، وقد قام كولان بترجمة لهذا الجزء إلى الفرنسية بالمجلد 26 من وثائق مغربية 1926م، من خلال ثلاث مخطوطات. كما اشر إلى مخطوط رابع، ولعلها هي المخطوطات التي اعتمدها سعيد أعراب في تحقيقه لنفس المصدر وهي : الأولى نسخة خطية بالخزانة العامة بالرباط رقم 1853هـ، والثانية بنفس الخزانة رقم 2100، والثالثة بنفس المكان رقم 1419د، والرابعة نسخة اليزيد بن صالح المنسوخة من طرف محمد ابن الطيب بن صالح 24 ذو القعدة 1205هـ.

حياة الزهد والتصوف لعصرهم، تلك الحياة في كتاباتهم بكل صدق وأمانة وصوروها في قالب بديع وواضح. وكما يقول ميغيل أسين بلاثيوس [رسالة روح القدس[13]] انجلت تباعا عبر صفحات تلك السير الرائعة جماعات متعددة مختلفة الألوان والمشارب من الزهاد والمتصوفين والعرافين والسحرة من مختلف الأعمار، رجالا ونساء، ومن مختلف المهن والمناصب[14] والطبقات الاجتماعية بحيث تبدو وهي تتحرك على مسرح الحياة الحضرية والقروية، كما أنها تتحرك عبر شريط سينمائي سواء بشخصيتها الفكرية والذاتية والمعنوية أو بخصوص حياتها الزهدية العامة [نساك، رهبان، حجاج، جنود، فرسان، بواسيل، دعاة، إلخ...] أو بطرق تربيتها الخاصة لتكوين المريدين، أو بتمارينهم الروحية المتميزة [الواجبات الدينية، الابتهالات، القراءات التكوينية والأوراد، الإكثار من الأذكار، تأملات، محاسبة النفس، قيام الليل، الخلوة، الصمت، مجاهدة البدن، صوم[15]، تهذيب الخ...] أو بهباتها السماوية، والكرامات بفضل أدعيتها ودموعها، ومشاهداتها [والأنوار والمعجزات والوجد الخ].

وكما أشرنا إلى ذلك في السابق، فقد استمال التصوف رجالا - وبعض النسوة أيضا - من مختلف الأعمار. فهنا أمير بربري قد تخلى عن امتيازاته[16] استجابة لنداء الشيخ "عبد السلام التونسي" ؛ وهناك عجوز تجاوز الثمانين

(13) فيداس : ص 12.

(14) إن جل متصوفة هذا العصر والعصور السابقة كانوا يمتهنون صنائع مختلفة كما كانوا أحيانا يشغلون وظائف دينية، أنظر المقصد ص 62. غير أن كثيرا منهم كان يعيش على الصدقات أو الفتوح. أنظر نفس المصدر ص 187-188.

(15) ليس المقصود هنا بالصيام صيام رمضان باعتباره الركن الرابع من أركان الإسلام، الممتد من طلوع الشمس إلى غروبها، وإنما يقصد به في الغالب ذلك الصيام المتواصل بالليل والنهار ولعدة أيام متتالية. وفي كتاب صلحاء الريف توجد أمثلة عديدة عن المتصوفة الذين كانوا يسردون الصوم.

(16) انظر تاريخ بني عبد الواد لأبي زكرياء بن خلدون، ترجمة ألفريد بيل الجزائر 1903م، ص 81. والنص الأصلي للكتاب، تقديم وتعليق وتحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات، الجزائر 1980م.

من عمره الذي تصوف[17] ؛ وشاب هنالك فضل مقايضة حياة اللذة الحسية ورغد العيش بحياة التزهد الصوفي[18].

ومثلما هو الحال عليه في المشرق[19] فإن من بين متصوفي الإسلام بالغرب، نجد عددا كبيرا من الأميين من أفراد الشعب إلى جاانب الراسخين في العلوم الدينية والتصوفية وسواء تعلق الأمر بهؤلاء وأولئك فإنهم حظوا بهذا القدر أو ذاك بكرامات ربانية جعلتهم في مصاف القدسين [الأولياء]، وسمحت لهم بتحقيق هذه الكرامة أو تلك حسب منزلتهم [أو مقامهم] في الهرم الصوفي. بل كان باستطاعتهم الوصول إلى أعلى الهرم : القطب أو مركز دائرة العالم الروحي الشاملة وإلى مراتب أقل، على أكثر تقدير كنواب "للقطب"، أو "أوتاد" للجهات الأربع من العالم الصوفي أو بدلاء، والذين كانت أدوارهم ووظائفهم تختلف درجة أهميتها في عالم المتصوفة[20].

إن خشية الله وعشقه. كحالات ملازمة لهؤلاء المتصوفة، ثم حرصهم الشديد على تجنب المعاصي والكذب والرذائل بكل أشكالها، جعلهم يبكون ويذرفون الدموع بغزارة. بل ويحكى أن دموع بعضهم كانت قادرة على تمزيق أو تجفيف جزء من سجادة الصلاة التي تسقط

---

(17) فيداس نفس المصدر، ص 109.

(18) المقصد ص 153.

(19) يشير ابن عربي بحنق في كتاب الرسالة القدسية الجزء الأول إلى الأخلاقيات المنحلة لبعض صوفية المشرق، من عيوب ورذائل ونفاق، التي تتعارض مع الأخلاق الفاضلة لدى صوفية المغرب والأندلس. هذا الفصل غني بالأوصاف الطريفة المتعلقة بالسلوك، والزي، والرياضات الروحية والعبادات، وكل ما له علاقة بالثقافة الزهدية الصوفية. فيداس : المقدمة، ص 11 - 12.
إنهم مدعين وليسوا صوفية خلص إذ لا يهمهم من الدنيا سوى ملذاتها. فالعالم المحسوس هو الوجود الأساسي في اعتقادهم ولذلك أولوه إهتماما أكثر من اهتمام بالحقيقة الإلهية ؛ فهم لا يفرقون بين الحلا والحرام، ولا يرغبون في كبح جماح شهواتهم المادية... [فيداس، من 18 إلى 20].

(20) أنظر مقدمة ابن خلدون، الترجمة الفرنسية ج 3، ص 104 - 106، وفصل التصوف، بيروت د.ت.و فيداس : ص 36. وكذلك بلوشي، المجلة الآسيوية : يوليوز - غشت 1902، ص 51 - 105.

عليها. وحسب روايات أخرى كانت دموع آخرين منهم تتضوع رائحة عطرة كرائحة المسك الجيد.

ومن بين المزايا الواجب توفرها في المتصوف، هناك من هي في متناول العامة من الناس كالصبر على الشدائد واحتمال الألم، والتحلي بروح الفتوة التي تمقت الشتائم وتجند النفس في سبيل الغير وبخاصة إزاء الضعفاء. نفس الشيء ينطبق على التقشف أو على ممارسة تزهد صارم. وهناك التزامات وواجبات لا تخص إلا النخبة المثقفة أو المفكرة. إن سالك الطريق [أو الطريقة] الموصلة إلي المعرفة الكاملة أو العرفان الذي يتوج إحسان الوصل الإلهي، هو ما يعتبر منازل [les demeures]. وفي إمكان تلك المنازل أن تعرف تحولا طفيفا في عددها، لكن تعتبر هي هي من حيث معناها التقليدي لدى جميع تلك المتصوفة، وقد تحدث ابن العريف في كتابه "محاسن المجالس" عن أهمها وهي كالتالي : الإرادة، الزهد أو الإمساك، التوكل، الصبر، الحزن، الخوف، الرجاء، الشكر، المحبة، التوبة، الأنس، والملاحظ أن المنازل الست الأخيرة تتعلق كلها بالله.

تلك كانت موضوعات التعاليم الصوفية الضرورية، مع شروح الشيخ ونصائحه لمريده حول الرياضات التي يجب عليهم الالتزام بها (تلاوة، أدعية، تقشف، الخ...][21].

ولعل البعض من هؤلاء المتصوفة البرابرة القدماء شعروا زيادة على ذلك بانزعاج كبير وهم يلقنون دروسا في التصوف لطلبة يتكلمون اللغة العربية، خصوصا إذا علمنا أنهم لا يتقنون التحدث بها هم أنفسهم، مثل أبي مدين والولي أبي يَعزة ؛ كما أشار إلى ذلك ـ عن صواب ـ م ج كولان.

---

(21) خلال قيام الحركة الصوفية ببلاد البربر التي ظهرت خاصة بالمدن، كان بعض شيوخ الصوفية ينشرون علومهم بين مريديهم في بيوتهم أكثر من نشرها بالمساجد. بيد أن ما ذهب إليه "كولان" في مقدمة ترجمته للمقصد إلى الفرنسية ـ من أن : (العلوم المبثوتة من طرف شيوخ الصوفية، إذا ما دققنا فيها النظر سنكتشف في نهاية التحليل، أنها تعاليم سادجة حول الحياة الدنيا الفانية باعتبارها متاع غرور، وحول أفضال التزهد فيها). هو ضرب من المجازفة.

إلا أن ضرورة الحفاظ على التصوف في إطار الدين الإسلامي وتعاليمه فرضت على الجميع معرفة بالواجبات الخاصة بالعبادة وممارستها ومعرفة بقواعد الأخلاق والحياة التصوفية أيضا إضافة إلى تفسير القرآن وأسماء الله الحسنى والأحاديث النبوية والأمثلة المأخوذة عن السالكين المعروفين(22) ولم يأخذ الجانب الفكري لتلك التعاليم مكانته إلا بفضل المتعلمين الأندلسيين على وجه الخصوص ؛ والذين ساهموا في تكوين عدد كبير من المتصوفة بإسبانيا وبلاد البربر خلال القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي، فقد كان الشيوخ يفسرون ويأولون لمريديهم مؤلفات للغزالي والقشيري ولبعض المشهورين المشارقة، إضافة إلى كتب بعض المتصوفة المشرقيين. وغالبا ما كان هؤلاء يفسرون كتبهم الخاصة لتلامذتهم الذين ينقلونها بدورهم إلى تلاميذهم، ولا أدل على ذلك من أمثال ابن عربي الذي درس ببجاية كتب يحيى بن الحسن مع مؤلفها [أنظر Vidas ص 173] وأيضا مثال البادسي الذي أجاز لأبي عمر العزافي تعليم المقصد بعد أن درسه مع مؤلفه. (المقصد ص 163).

ومن الملاحظ، على الرغم من ذلك، أن المحدّثين (les traditionnistes) والفقهاء (les légistes) لم يكن فيهم من يمثل فئتهم، خلال تلك الفترة من التصوف الغزالي بالغرب الإسلامي، إلا عدد قليل جدا (23) وقد أشار ابن عربي إلى مثل هذه الحالة وهو يتحدث باستغراب عن شيخه المتصوف المحدِّث أبي الحسن يحي من سبتة. وفي ما يتعلق بأبي عبد الله بن العاص من بجاية المتوفى (باشبيلية) فإنه يضيف قائلا : "لقد كان من الناذر جدا أن تجد قاضيا متزهدا" وأخيرا يروي مغاربي آخر وهو "أبو محمد صَالح"، المتصوف المشهور الذي يروي حفيده عن كراماته في كتابه "المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي

(22) لبلوغ المعرفة الباطنية الكاملة، يؤكد ابن عربي على ضرورة الإلمام بالمعارف السبعة التالية : معرفة الأسماء الإلهية الحسنى، ومعرفة الأنوار الربانية، ومعرفة تجليات الخطاب الإلهي، ومعرفة الكامل والناقص من الموجودات، ومعرفة ماهية الإنسان، ومعرفة دور التمثلات في الحياة الصوفية، ومعرفة عيوب النفس وأمراضها وكيفية علاجها.

(23) ومع ذلك كان لهذه الفئات من يمثلها، كما ستتبين ذلك، إلا أنه ابتداءا من القرن 15م ستتوسع دائرة القضاء والمتلمين الصوفية.

محمد صالح"، يروي هو نفسه في كتابه "تلقين المريد" عن لوم القضاة له بسبب تصوفه، وكيف أنه رأى في منامه ملاكا يخاطبه قائلا (أمنشغل أنت باللوم الذي أبداه القضاة تجاهك ؟ لا تبالي بهم : فهم جميعهم يوثرون العالم الدنيوي على العالم السماوي) ؟[24].

لكن إذا كنا نعلم أنه كان يوجد بالغرب متصوفة غير متعلمين بل وأميين، لم يتلقوا "تعليما دينيا متينا... من دونه يستحيل خدمة الله خدمة صالحة" (أنظر vidas ص 190)، فإن اهتمام المتصوف المشهورين في ذلك الزمان كان منصبا على معرفة الشريعة الإسلامية، بل كان حرصهم شديدا على أداء واجبهم الديني كمسلمين حقيقيين.

ولتوضيح ذلك بصورة أفضل (اعتمادا علىٰ ترجمة Miguel أنظر vidas ص 88 - 90)، سنسوق هنا مثالا لحياة المتصوف الإشبيلي اليومية، ابن قسوم (توفي سنة 606هـ / 1209م) حسب سيرة هذه الشخصية التي أوردها ابن عربي : "فبعد صلاة الفجر، كان يقوم بالذكر حتى مطلع الشمس وبعد أن يصلي ركعتين يأخذ كتبه ويذهب لإلقاء الدرس على تلامذته الذين كانوا يدرسون العلوم الدينية بتوجيه منه ؛ ويستمر ذلك حتى منتصف الصبيحة. وحين عودته يتناول بعض الطعام إذا لم يكن قد عزم على الصوم ذلك اليوم، ثم يشرع في الذكر قبل أن يأخذ له قسطا من الراحة لبعض الوقت. بعد ذلك يقوم ليتوضأ ؛ فإذا كان لديه ما يكتبه فإنه يقوم بذلك، وإلا فإنه يقوم بالذكر. حوالي الثانية عشر زوالا يفتح باب المسجد (إذْ كان هو نفسه إمامه والمؤذن فيه) ثم يدخل إلى غرفته حيث يواصل تأملاته وأدعيته وابتهالاته إلى حين حلول وقت صلاة الظهر (حوالي الساعة الواحدة بعد الزوال). حينها يذهب إلى المسجد للإمامة بالناس. كان يقف أمام المحراب في خشوع تام دون أن يغير مكانه، لكنه كان يتمايل كالسكران من فرط التأثير الوجداني العميق الذي أحدثته كلمة الله في باطنه. بعد الصلاة يغادر المسجد لتلاولة القرآن وقراءة الجزء الذي اعتاد على "ترتيله" في مثل هذا الوقت. يأخذ الكتاب المقدس ويفتحه على ركبتيه ثم يشرع في ترتيل

(24) انظر المقصد، ص 93، ولا سيما إشارة المترجم بالهامش رقم 297.

الآيات باهتمام وتعطش شديدين حتى الحزب الخامس من كتاب الله إلى غاية حلول وقت صلاة العصر. بعد الآذان يأخذ في الدعاء ريثما يجتمع المصلون. وحين يفرغ من الصلاة يعود بعد ذلك إلى غرفته للتأمل حتى المغرب، حيث يخرج للإعلان عن موعد الصلاة ؛ ثم يعود إلى غرفته، وقبل حلول صلاة العشاء، يذهب إلى المسجد لإشعال المصابيح، ثم ينادي للصلاة، وبعد الآذان يعود إلى الغرفة كي يستأنف دعواته وابتهالاته إلى حين قيام الصلاة. بعدئذ يغلق باب المسجد ويعود إلى غرفتفه، ثم يدون أحداث اليوم في مذكرته قبل مراجعة النفس ومحاسبتها، ومراجعة كل حركاته وأحاديثه وكل ما كان الملاك ـ الرقيب يدون. أما العقوبات التي كان يخضع نفسه لها، فكانت بحجم ما دونه في المذكرة.

بعد ذلك يخلد للنوم ؛ لكنه لا ينام إلا جزءا من الليل. وإذا استيقظ من نومه اغتسل إذا كان لامس زوجته، ودخل إلى مكان خلوته لترتيل القرآن بصوت خافت ؛ مستغرقا في تفكُّره وتأملاته ؛ في ملكوت الماهية الإلهية تارة وفي وحدتها المطلقة وفي فناء العالم الأرضي وفي عالم القرار والسعادة، وفي مشيئة الله وحكمه بحسب ما يوحى له نص الآية المرتلة في تلك اللحظة تارة أخرى. ويبقى على هذا الحال إلى غاية طلوع الفجر، ثم يختم بعدها بالدعاء والشكر لما أسبغه الله عليه من نعم فيض الأنوار التي تكشف له عن أسرار القرآن ؛ أسرار لم يكن يدركها فيما قبل، والتي وهبه الله إياها محققا لوعده في قوله تعالى : ﴿واتقوا الله يعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾ البقرة 282.

وفي الفجر يفتح باب المسجد وينادي للصلاة بعد أن يشعل المصابيح، ثم يعود إلى غرفته منتظرا حلول وقت الفجر فيصلي ركعتين في هذه الأثناء كما دأب على ذلك، ثم يجلس متفكرا في ملكوت الله. وعندما يحين الوقت يذهب لكي يؤدي الفرض مع الجماعة.

كان ذلك سلوكه اليومي لا يحيد عنه قيد أنملة. فخلال الأسبوع لا ينام الليل كله إلا يوم الاثنين والجمعة. ومن الجانب التأملي في حياته الدينية

فإنه التزم بتعاليم الدين [وفق السنة المحمدية] الأرثدكسية التقليدية، في كل الأحوال الصوفية التي تنتاب حياته الباطنية، العرضية منها والدائمة.

وإذا كان الكثير من الصوفية المتعلمين والمتشبثين بالسنة - لا سيما الأندلسيون منهم كالقاضي والنحوي "ابن قسوم" [انظر ابن الأبار كتاب التكملة لكتاب الموصول والصلة] - قد سلكوا مثله حياة تقية ومضبوطة بدقة، فإن عددا كبيرا استعاضوا عن العلوم الدينية والتأمل والتفكر بأدعية وأذكار موجزة، والصيام والتقشف. وحسب رواة سيرهم، فإن هذه الفئة أو تلك كانت محط عناية وإحسان رباني. ليس هذا وحسب، بل كانوا يتلقون تنبيهات وإشارات من الله ومن الملائكة والنبي والأولياء سواء في يقظتهم أو في منامهم. وبالنسبة للجميع، كانت مثل هذه التهيوءات، بل وأحلام الصوفية، كانت حقائق أكيدة وثابتة.

وهذا المتصوف الإشبيلي "أحمد ابن المنذر"، القاضي المالكي وجد نفسه أمام إشكال تتعلق بالشريعة الإسلامية فبقي في حيرة من أمره إلى أن زاره الإمام مالك في منامه ليعطيه الحل.

سبق لي أن قلت أن الدقاق ظهر في الحلم كالشمس لأحد تلامذته، وأنه قد يكون هو نفسه قال له : "إنني أشبه بشمس هذا الزمان". [أنظر سيدي أبو مدين وشيخه الدقاق ص 33].

ومثل الشمس كان القطب أبو مدين يتجلى لخادمه وتلميذه "المَوْروري"، "عندما يعطي دروسا للمتصوفة، ومثل القمر عندما لا ينبس ببنت شفة".

وقد فسر الشيخ ذلك على أنه رمز مبرر على الوجه الأكمل، إذ أن خاصية الشمس - مثله - "تتجلى في تبديد كل ظلمة وإبعاد كل غم" [Vidas P 112].

وفيما يتعلق بمماثلة وتشبيه الشيخ الصوفي بالشمس، من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن المتصوف "عبد الجليل بن موسى القصري" كان قد

كتب في موضوع الروح - استنادا إلى التقليد الذي رسخه الغزالي في تعاليمه - كتب يقول : " إن الروح الكلية تعكس الأرواح [الجزئية] الجسدية ما تعكسه الشمس أشعتها : إنها ما هية بسيطة تتكاثر بتكاثر الأرواح البشرية، مثلما أن الشمس ما هية بسيطة ينعكس نورها على المرايا الملساء عندما تقابلها" [أنظر كولان الحاشية 128 من ترجمة "المقصد"].

لذا لن نفاجأ إذا ما علمنا أن المتصوفة يشبهون القطب والغوث "أبو مدين" بالشمس ملكة النجوم. هذا الأندلسي الذي درس أولا بإسبانيا قبل أن يذهب إلى فاس حيث سلك طريق التصوف ونال الإجازة [خرقة التصوف][25] من معلمه "أبي يعزى" [توفي عن سن يناهز المائة عام، سنة 572هـ / 1177م]. هذا الأندلسي إذا دَرَّسَ التصوف "ببجاية" وتوفي بتلمسان سنة 1197م، حيث دفن بها وأصبح منذ ذلك الوقت وليها الصالح. لقد كان في القرن الثاني عشر الميلادي، مركز إشعاع التصوف الغزالي - الإسلامي السني [الأرتدكسي]، بالغرب الإسلامي.

وقد عمل تلامذة "أبي مدين" المباشرين وغير المباشرين، منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، على تلقين تعاليم الشيخ وغيره ببلدانهم الأصلية ونشرها بينهم. ويمكن أن نُكَوِّنَ فكرة عن الطريقة التي تم بها ذلك بالرجوع إلى أولى ترجمات الحياة الثماني والأربعين للبادسي بالمقصد[26] والمتعلقة بـ "أبي داوود مزاحم". فبعد أن درس على يد أبي مدين، رجع هذا الريفي [توفي سنة 578هـ / 1182م] إلى بلده بطيوة وأسس رباطا بها حيث عاش حياة صوفية صارمة، محققا بعض الكرامات ومساهما في تكوين عدد من المريدين.

---

(25) تجدر الاشارة هنا أن سلسلة سند الطريقة الصوفية يمتد عندهم إلى الإمام الغزلي، وعلى ما يبدو يقوم النظام التعليمي على برنامج يتوج في نهايته بتلقي السالك للخرقة، التي يخلعها الشيخ على المريد - والخرقة في التصوف توازي الإجازة في العلوم الدينية - فيما يتعلق بأبي مدين يمكن الرجوع بصفة خاصة إلى ما أشرنا إليه في كتاب : "سيدي أبو مدين وشيخه الدقاق " ص 35، حيث أشير إلى فقرة من كتاب "المغزى في مناقب أبي يعزى".

(26) أنظر المقصد [الترجمة الفرنسية] صص 21-30، وإشارات المترجم.

ومنذئذ ستشهد تلك المناطق الجبلية، طيلة القرن 13م بكامله تكاثر الشيوخ والمريدين. العديد من هؤلاء الصوفية البرابرة سيتبعون نموذج أبي داوود ؛ فقد كانوا في زواياهم محاطين بعائلاتهم وأطفالهم وخدمهم ومريديهم، فقراء الزاوية(27) التي يجد فيها المسافر المسلم والحاج المتصوف مأوى آمنا ومضيفا. ويعتبر مؤسس الزاوية - هذا المتصوف، صاحب الكرامات - وليا أطبقت شهرته الآفاق ؛ فيأتي الناس لزيارته طمعا في دعواته وبركته. وعند وفاته يدفن هنا [بالزاوية]، فتنتقل إدارة الزاوية وتعليم الفقراء إلى أحد أبنائه أو أقاربه أو مريديه، وبهذه الطريقة إذن ينتشر التصوف في ربوع البلاد.

إن قراءة متأنية للمقصد [المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، للبادسي] في ترجمة كولن الغنية بالبيانات الوافرة والقيمة، وهي تساعدنا على فهم الطريقة التي تمكن التصوف من خلالها تثبيت جذوره بجبال الريف المغربية، إن قراءة له ستسمح لنا أن نتصور كيف تم الحصول على نتائج مماثلة عبر حركة مشابهة في المناطق الأخرى من بلاد البربر، منذ نهاية القرن 12م. وسندرك هكذا ميل البدو، شأنهم في ذلك شأن الحضر، إلى ذلك الإسلام الشعبي البسيط القريب من شعورهم الديني والعزيز على قلوبهم. وفي المقصد إشارة إلى بعض الوقائع البليغة الدلالة في هذا الباب، تفصح عن هذا العشق الورع.

بجبال الريف خلال القرن 13م لا حديث للناس إلا عن كرامات هذا المتصوف أو ذاك، كالحديث عن كرامات "أبي عبد الله الفرد"، على سبيل المثال. إذ كان تعديد الكرامات تسلية ورعة للمسافرين(28).

---

(27) الفقير، جمعه فقراء، والفقير حسب البادسي هو : "هو الذي يتجرد من كل شيء ابتغاء لمرضاة الله"، والنص العربي للمقصد، الفقر هو : "افتقار إلى الله في كل حال وفي كل نفس، والفقر المحمود هو فقر الاختيار، ومعناه أن يلازم الفقر إيثارا له عن الغنى. ص 29 نفس المصدر السابق.

(28) المقصد [ت ف] ص 81 والسفر في اللغة خلاف الحضر، وهو مشتق من ذلك لما فيه من المجيء كما تذهب الريح بالسفير من الورق وتجيء، فالسفر إذن قطع المسافة. والسفر الصوفي كما يرى الكاشاني : هو توجه القلب إلى الحق، أي ارتقائه بالتدريج =

لقد كان تأثير المتصوفة كبيرا على سكان الجبال الأميين لدرجة أن السلطان الثاني في الدولة المرينية بفاس، "يوسف بن يعقوب" [حكم من 685هـ / 1286م إلى 706هـ / 1307م] اتخذ عددا من الإجراءات لتلافي قيام انفاضة شعبية ضده[29].

أما سلطان تونس الحفصي فقد لجأ إلى قمع تمرد صوفي بالجنوب سنة 713هـ / 1313م قاده متصوف من "طولغا" تتلمذ على يد عبد الرحمان التسولي[30].

والواقع أن المتصوفة أصبحوا شخصيات يقصد إليها، ليس من أجل التخلص من حكم لم يعد مرغوبا فيها وحسب، وإنما للحصول بتوسطهم وبدعواتهم على إنهاء وضع متأزم...، أو مرض أو وباء إلى آخره... وكان يلجأ إليهم أيضا لطرد سوء الطالع أو المرض أو الكرب... مثل حالة تلك المرأة المسكينة التي طلبت من أحدهم أن يعيد إليها إبنها البكر، معيلها الوحيد ؛ والذي أسره المسيحيون في البحر، وقد تم لها ما أرادت[31].

لذا كان المرء يشعر ببعض الفخر حين يقوم أحد المتصوفة بزيارته، إذ كان يُستقبل بإجلال ووقار نظرا لما يتمتع به من حظوة عند الناس[32]. ليس هذا وحسب، بل إن خدام هؤلاء الصوفية كانوا يقومون بجولات سنوية ـ كان

= في الصفات المحمودة. وهويتم على أربع مراحل، الأولى هي السير إلى الله من منازل النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين، وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات الأسمائية. الثاني هو السير بالله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى، وهو نهاية مقام الروح والحضرة الواحدية. والثالث هو الترقي إلى عين الجمع والحضرة الأحدية، وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الإثنينية، فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى، وهو نهاية الولاية. والسفر الرابع هو السير بالله عن الله بالتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع [المترجم].

(29) نفسه، ص 115 - 116.

(30) راجع كتاب أكور، كتاب : "سلالة الشرفاء بالمغرب".

C F A. Cour; L'Etablissement des Dynasties des cherifs au Maroc, Paris 1904, p. 11.

(31) المقصد [ت ف] ص 84.

(32) نفس المصدر، ص 50 - 51.

ذلك منذ القرن 13م ولازال إلى غاية اليوم - لجمع الهبات والعطايا [الفتوح] من أجل الزاوية. الشيء الذي يسمح بجمع أموال كثيرة[33].

وتكفي هذه الأمثلة - وغيرها كثير - للدلالة على ثقة الشعب في المتصوفين. ويبدو أن هؤلاء قد حولوا اهتمامهم - في غرب بلاد البربر، منذ القرن 14م - نحو المهدوية كما كان يحصل ذلك مرارا مع المسلمين في الفترات العصيبة من تاريخهم.

يقول ابن خلدون في مقدمته[34] : أنه في عصره، ومنذ بداية القرن 14م. أشاع المتصوفة خبر "ظهور رجل سيتولى تجديد أمر الدين وتعاليم الحقيقة والعدل. وأنهم بصدد انتظار ظهوره قريبا. كان بعضهم يقول أنه سيكون من أحفاد فاطمة، والبعض الآخر كان يتحدث عنه طويلا".

وفكرة المهدي أو "المنقذ المنتظر" والتي نعرف أي دور لعبته في إطار الإسلام الأرثدكسي السني، كانت حجر الزاوية لدى المنشقين الفاطميين في بلاد البربر، ثم في مصر. وليس ذلك بغريب إذا ما تبناها متصوفة المغرب. فبين الشيعة الفاطمية والمتصوفة يوجد تشابه مذهبي يتجلى في الاعتقاد بأن نفحة قدسية يمكن أن تهب على بعض الناس - إمام الفاطميين المعصوم - الذي يصل أسمى "المراتب" الصوفية. لكن مثلما أن مهدي الشيعة سيكون آخر الأئمة المعصومين، فمن الممكن أن نتصور أن المتصوفة استشفوا نفس الإمكانية لقطبهم، شيخ التعليم الباطن، وشيخ العارفين بالله[35].

---

(33) نفسه، ص 114.

(34) حول إحتمال أخذ الصوفية عن الشيعة الفاطمية، أنظر رأي ابن خلدون في كتابه "المقدمة، النسخة المترجمة إلى الفرنسية، ج 3، ص ص 100 - 106.
والنسخة العربية للمقدمة، فصل 52 "في أمر الفاطمي وما يذهب عليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك".

(35) بدأ المسيحيون يمدون سيطرتهم شيئا فشيئا على شبه الجزيرة الإيبيرية، ويهددون سواحل بلاد البربر الغربية. وكان المسلمون يعتبرون ذلك عقابا ربانيا، وتنبيها لهم حتى يرجعوا إلى جادة دينهم. إن ظهور المهدي المنتظر هو الذي سيرسي دعائم الإسلام الحق، والعمل على خلاص العالم من الشرور، وإرجاع الناس إلى طريق الخير والإمان الصادق. وقد أنتجت بلاد البربر على امتداد كل الفترات عددا من هؤلاء الدعاة الدجالين.

بيد أن المهدي الذي أعلن اللمتصوفة البربر والعرب عن ظهوره الوشيك، في زمن ابن خلدون، لابد أن يكون من حفدة علي وفاطمة بنت النبي. ولنا أن نتصور الحظوة التي سينالها أحفاد النبي من ذلك. وهذا سيدفع إلى الشعور بالنفوذ والاعتبار الذي يخص به منذ القرن 15م الشرفاء وأشباه الشرفاء في غرب بلاد البربر، حيث سيلعبون إلى جانب تصوف الأخويات الدينية، دورا دينيا واجتماعيا وسياسيا[36].

وإذا ما عدنا إلى الاستحسان الذي لقيه التصوف في بعض المناطق من بلاد البربر بالمغرب في القرن 13م وعلى عتبة القرن 14م، فكيف يمكن تفسير تأكيد ابن خلدون القائل بأن : "القليل جدا من الناس يقتدون... بالمتصوفة، تكاد اللامبالاة في هذا الشأن أن تكون عامة على نحو ما ؟"[36]. من دون شك أن هذا المؤرخ لم يسمع إلا بعالم المتعلمين. إذ يقول فعلا بعد ذلك : "لقد حرص عدد كبير من الفقهاء و... على رفض المتصوفة المتأخرين... فهم يدخلون في نفس الاهتمام كل ما تعلمه المتصوفة من خلال تعاطيهم للممارسات تخص طائفتهم"[37].

والواقع أنه منذ منتصف القرن 14م، لم يعد المتصوفة يستقطبون من الدوائر المتعلمة، كما كان في زمن "أبيمدين" و"ابن عربي" [القرن 12م] و"الادلي" [القرن 13م] و"البادسي" [بداية القرن 14م]. وابن خلدون يعترف صراحة عندما يؤكد بأن أبا يعقوب البادسي، الإمام والقاضي المالكي المذهب كان كبير الأولياء ؛ أي شيخ شيوخ الصوفية في بلاد البربر، الذي ما زال ضريحه بالريف قبلة للزوار إلى يومنا هذا بالريف[38]. هذه الشخصية الورعة كانت خاتمة السلسلة الإولى، الغنية جدا بشخصياتها المشهورة، من المشايخ المتصوفة المسلمين بهذه الرفعة من بلاد الإسلام.

ومنذ ذلك الوقت، أي حوالي قرن من الزمان، سيعرف التصوف أزمنة تتمثل في عدم ظهور مشاهير التعليم الصوفي على الساحة الفكرية

(36) أنظر المقدمة [ت ف] ج 3 ص 88.

(37) نفسه ص 110.

(38) أنظر المقصد ص 146 وما بعدها.

الدينية بالمغرب ؛ أزمة ستستمر إلى غاية منتصف القرن 15م، وهي الفترة التي ظهر فيها الجزولي [توفي سنة 870هـ / 1465 - 1466م].

هذا النوع من القصور في التعليم الصوفي الذي لم يمس العامة من الشعب - وإنما عددا من خواص المتعلمين - لم يمنع الحركة الصوفية من الاستمرار من خلال الأخويات الدينية [الزوايا] التي شهدت تزايدا ملحوظا في عدد مرتاديها ؛ لأن زعماء وشيوخ هذه الطوائف الزهدية عملوا على انخفاظ مستوى المخطط التعليمي المذهبي والعلمي حتى تكون ملائمة ومسايرة لمستوى فهم العامة. ومنذ ذلك الحين لم تقم له قائمة أبدا.

وهكذا فقد ساهم تصوف الغزالي، الذي استقبل بالترحاب في الغرب الإسلامي، في القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين في ظهور عدد من الأولياء الكبار الذين كانوا بحق من جهابذة شيوخ التعليم، معلمي مبادئ الإسلام الصوفي، والذين عملوا في البداية على نشر آرائه في الأوساط الحضرية. وشيئا فشيئا، سيقوم تلامذتهم بنقله إلى البوادي، حيث أسسوا زوايا للتعليم الصوفي في إطار التعاليم الإسلامية. وبفتحهم الباب على مصرعيه لدخول التصوف إلى القرى وتقريبه من العامة، فقد ساهموا في غالب الوقت في أسلمة أو إعادة أسلمة البوادي[39] مهيئين بذلك السبل إلى الحركة الصوفية الشعبية الإسلامية الكبرى التي ستمتد من الغرب إلى الشرق، منذ القرن 15م بواسطة الأخويات الدينية ؛ بل وستشمل كل بلاد البربر، مساهمة بذلك في إعطاء الإسلام صورته التي حافظ عليها حتى أيامنا هذه.

---

(39) ولعله يقصد نشر الإسلام وإعادة نشره بالوادي.